اتزان الكلام

لا يكون الرجل متصفًا بالسمت الحسن حتى يتصف بالرزانة في كل شيء، ومن الرزانة اتزان الكلام، فإن رفع الصوت في المخاطبة والمُلاحاة ليس بمحمود، وهو داخل في باب الصوت المنكر الذي يضع من قيمة صاحبه؛ قال الله ـ سبحانه ـ: ﴿ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ (لقمان:١٩).

قال ابن كثير ـ رحمه الله ـ: « ﴿ وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ ﴾، أي لا تبالغ في الكلام، وترفع صوتك فيما لا فائدة فيه، ولهذا قال: ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ ».

قال مجاهد وغير واحد: « ﴿ إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴾ أي: غاية مَنْ رفع صوته أن يشبه بالحمير في علوه ورفعه ـ وهو مع هذا بغيض إلى الله، وهذا التشبيه بالحمير يقتضي تحريمه، وذمه غاية الذم»[1].

---

(١) «تفسير ابن كثير» (٣/ ٤٣٠).

وقال ابن سعدي ـ رحمه الله ـ: « ﴿وَاغْضُضْ مِن صَوْتِكَ﴾، أدبًا مع الناس ومع الله، ﴿إِنَّ أَنكَرَ الأَصْوَاتِ﴾، أي أخنعها وأبشعها ﴿لَصَوْتُ الْحَمِيرِ﴾، فلو كان في رفع الصوت البليغ فائدة أو مصلحة لما اختص الحمار بذلك الذي علمت خسته وبلادته»[(١)].

وقال ابن قتيبة: «عَرَّفَه قُبْحَ رفع الأصوات في المخاطبة بقبح أصوات الحمير؛ لأنها عالية»[(٢)].

وقال ابن زيد: «لو كان رفع الصوت خيرًا ما جعله الله للحمير، وقال سفيان الثوري: «صياحُ كل شيء تسبيحٌ لله إلا الحمار؛ فإنه ينهق بلا فائدة[(٣)]»[(٤)].

---

(١) «تيسير الكريم الرحمن» لابن سعدي (٦/ ١٦٠).
(٢) «الآداب الشرعية» (٢/ ١١١).
(٣) قال شيخنا الجليل عبد العزيز البرعي ـ حفظه الله ـ: «إن نهيق الحمار يستفاد منه فائدة خير من جليس السوء؛ وذلك بأن الحمار إذا نهق ذكرك أن تستعيذ بالله من الشيطان كما جاء في الحديث الآمر بالاستعاذة عند نهيق الحمار».
(٤) «الآداب الشرعية» (٢/ ١١١).

ولئن كان خفض الصوت وعدم رفعه عن القدر المعتاد جميل مع كل أحد فهو مع أهل الفضل والعلم والدين أجَلُّ.

وقد كان بعض الصحابة يرفعون من أصواتهم في حضرة النبي ﷺ، فأنزل الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنتُمْ لا تَشْعُرُونَ ﴾ (الحجرات: ٢).

وهذا أدب مع رسول الله ﷺ فآمر الله-سبحانه وتعالى- الصحابة أن يحفظوا أصواتهم عنده تعظيمًا وتكريمًا وإجلالاً، ويرى بعض أهل العلم أن من الأدب مع رسول الله ﷺ خفض الصوت عند سماع حديثه بعد مماته كما هو في حياته، ويدخل في هذه الآية خفض الرجل صوته مع من هو أعلى منه مكانة.

ومما جاء في صفة النبي ﷺ في التوراة أنه لم يكن صخابًا أي عالي الصوت، ولم يكن ـ أيضًا ـ خافتًا في

صوته ولكن كان بين ذلك فينبغي التشبه به ، في سمته وهديه وفي شأنه كله إلا ما كان من خصائصه؛ فعن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: «إنَّ هذه الآية التي في القرآن: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً﴾ (الاحزاب:٤٥)، قال في التوراة: «يأيها النبي إنَّا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وحرزًا[١] للأُمِّيِّين[٢]، أنت عبدي ورسولي سمَّيتك المتوكِّل[٣]، ليس بفَظ ولا غليظٍ ولا سخابٍ[٤] بالأسواق، ولا يدفَعُ السَّيِّئَةَ بالسَّيِّئَة ولكن يعفو ويصفح، ولن يقبضَهُ الله حتَّى يُقيمَ به الملَّةَ العَوْجَاءَ، بأنْ يقولوا: لا إله إلا الله، فَيَفْتَحَ به أعيُنًا عُمْيًا، وآذانًا صُمًّا، وقلُوبًا غُلْفًا»[٥].

---

(١) حرزا: أي عصمة.

(٢) الأميين: العرب.

(٣) المتوكل من أسماء النبي ﷺ سمِّي به لقناعته باليسير والصبر على ما كان يكره، قاله ابن حجر في «الفتح» (٨/ ٤٥٠).

(٤) سخاب وصخاب: عالي الصوت.

(٥) رواه البخاري (٤٨٣٨).

وقال ابن مسعود رضي الله عنه يوصي طالب العلم: ينبغي لحامل القرآن أن يكون باكيًا محزونًا حكيمًا حليمًا سكينًا، ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافيًا ولا غافلاً ولا صخابًا ولا صيَّاحًا ولا حديدًا[1]»[2].

(١) الحديد يعني الشديد الغليظ.

(٢) «الفوائد» (١٤٤).

obeikandl.com

حسن الاستماع

متى أقبل المرء على محدثه بالإصغاء إليه بالآذان، وطرف العين، وحضور القلب، وإشراقة الوجه فقد تحلى بالسمت الحسن الذي لا خيار فيه ولا عثار، فحسن الاستماع من أخلاق الرجل النبيل ذي المروءة والأدب وكرام الناس يراعون هذا الأدب.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «لجليسي عليَّ ثلاث: أن أرميه بطرفي إذا أقبل، وأن أوسع له في المجلس إذا جلس وأن أصغي إليه إذا تحدث»[1].

وقال عمرو بن العاص رضي الله عنه: «ثلاثة لا أملهم: جليسي ما فهم عني، وثوبي ما سترني، ودابتي ما حملت رجلي»[2].

---

(١) «عيون الأخبار» (١/ ٣٠٧).

(٢) المرجع السابق (١/ ٣٠٦).

وروى ابن حبان بسنده إلى معاذ بن سعيد الأعور ـ رحمه الله ـ أنه قال: «كنتُ جالسًا عند عطاء بن أبي رباح، فحدث رجل بحديث فعرض رجل من القوم في حديثه، قال: فغضب، وقال: ما هذا الطباع؟ إني لأسمع الحديث من الرجل، وأنا أعلم به، فأريه كأني لا أحسن شيئًا»[١].

وقال: «إنَّ الشاب ليتحدث بالحديث فأسمع له كأني لم أسمعه، ولقد سمعته من قبل أن يولد»[٢].

وقال الحسن: «إذا جالست فكن على أن تسمع أحرص منك على أن تقول، وتَعلَّم حسن الاستماع كما تتعلم حسن القول، ولا تقطع على أحدٍ حديثه»[٣].

وأوصى خالد بن يحيى ابنه، فقال: «يا بُنيَّ إذا حدثك جليسك حديثًا فأقبل عليه، وأصغِ إليه، ولا تقل

---

(١) «روضة العقلاء» (ص٧٢)، و«تذكرة السامع والمتكلم» (ص١٠٥).
(٢) «تذكرة السامع والمتكلم» (ص١٠٥).
(٣) «المنتقى» (ص١٥٥).

قد سمعته وإن كنت أحفظ منه، فإن ذلك يكسبك المحبة والميل إليك»[١].

وعن إبراهيم بن الجنيد ـ رحمه الله ـ أنه قال: «قال حكيم لابنه: يا بُني تعلَّم حسن الاستماع كما تتعلم حسن الكلام، فإن حسن الاستماع إمهالك المتكلم حتَّى يفضي إليك بحديثه، والإقبال بالوجه والنظر، وترك المشاركة بحديثٍ أنت تعرفه»[٢].

ومن درر ابن المقفع قوله: «تَعلَّم حُسْنَ الاستماع كما تتعلَّم حُسْنَ الكلام، ومن حُسْنِ الاستماع إمهالُ المتكلِّم حتى يَنْقَضِيَ حديثُهُ، وقِلَّة التلفت إلى الجواب، والإقبال بالوجه والنظر إلى المتكلم، والوَعيُ لما يقول: واعلم، فيما تُكلم به صاحبك، إن مما يُهَجِّنُ صواب ما يأتي به، ويذهب بِطَعْمِهِ وبَهْجَتِهِ، ويُزْرِي به في قبولِهِ،

(١) «بهجة المجالس» لابن عبد الله (١/٤٣).
(٢) «الفقيه والمتفقه» (ص١٣٦).

عَجلَتَكَ بـذلك، وقَطْعَكَ حديثَ الرَّجُل قـبل أن يُفضي إليك بذات نفسه[١]»[٢].

وقال ـ أيضًـا ـ: «وإذا رأيت رجلاً يحـدِّث حديثًـا قد علمتـه، أو يخبر خبـرًا قد سمعـته، فلا تشارك فـيه، ولا تتعقبه عليه حرصًا على أن يعلم الناس أنك قد علمته، فإن ذلك خفة، وسوءُ أدبٍ وسخفٌ»[٣].

وقال: «من الأخلاق التي أنت جدير بتركها ـ إذا حدث الرجل حديثًـا تعرفه ألا تسابقـه، وتفتحه عليـه، وتشاركه، حتَّى كأنك تظهر لـلناس أنك تريد أن يعلموا أنك تعلم مثل الذي يعلم، وما عليك إلا أن تهنئه بذلك، وتفرده به، وهذا الباب من أبواب البخل، وأبوابه الغامضة كثير»[٤].

---

(١) يفضي إليك بذات نفسه: أي يكشف لك مكنون صدره.
(٢) «الأدب الصغير والأدب الكبير» (ص١٢٩، ١٣٠).
(٣) «الأدب الصغير والأدب الكبير» (ص١٣٦).
(٤) المرجع السابق (ص١٦٨).

ومن السمت الحسن إذا سألك أحد فلا تعجل إلى جواب، ولا تهجم على سؤال؛ فإن ذلك رعونة وطيش، والبصير العاقل يستفهم قبل الجواب، ويبدأ جوابه بمقدمة حسنة، كالثناء على الله وعلى رسوله، ثم يجيب بجواب لا ريث فيه ولا عجل، فذلك أدعى لوقار الكلمة وجلال المتكلم.

obeikandl.com

تجنب الإلحاح

الإلحاح مناف للسمت الحسنِ بل إنه مناف للوقار مناف للسكينة مناف للمروءة، وانظر أمَنْ يطلُبُ إليك بالإجمال والتكرم أحق أن تسخُو نفسك له بطلبته أم مَنْ يطلُبُ إليك بالإلحاح؟

فإذا كانت لك إلى أخيك حاجة فصن نفسك عن الإلحاح؛ فإنك متى ألححت عليه في الطلب أحدث لك في قلبه رِقَّة شأنٍ وسخف مَنْزِلَةٍ.

ومتى ألححت على أخيك فربما أعطاك من غير طيب نفس فلم يبارك لك فيه[1].

---

(١) أخرج البخاري في «صحيحه» (١٤٧٢)، ومسلم (١٠٣٥) من حديث حكيم بن حزام رضي الله عنه قال: سألت رسول الله ﷺ فأعطاني، ثم سألته، فأعطاني، ثم سألته فأعطاني، ثم قال: «يا حكيمُ، إنَّ هذا المال خضرة حلوةٌ، فمن أخذه بسخاوة نفس - أي بغير شَرَهٍ ولا إلحاح، وبغير سؤال - بُورك له فيه، ومن أخذه بإشراف نفسٍ =

وربما أعطاك من الوعود ما لا طاقة له بالوفاء فتركك الإلحاح أمحض في التكرم وأبرأ من الدنس.

فإذا طلبت إلى أخيك حاجة، أو قرضة، أو شفاعة، أو دعوة، أو أي شيء كان فجميل أن يكون طلبك بكلمةٍ واحدةٍ تزينك خير من إلحاح يشينك، وما هو كائن سيكون بقضاء الله وقدره وما لا يكون فلا يكن بإلحاح ومهانة.

وربما من تلح عليه تصرف معك تصرفات غيرك أحوج إليها منك؛ فعن عائشة رضي الله عنها قالت: «لما جاء قتل زيد بن حارثة وجعفر وعبد الله بن رواحة جلس النبي ﷺ يُعرف فيه الحزن ـ وأنا أطَّلع من شق الباب ـ فأتاه رجل فقال: يا رسول الله إن نساء جعفر ـ وذكر بكاءهنَّ ـ فأمره

= ـ أي طمع النفس فيه، وتطلعها إليه ـ لم يُبارك له فيه، كالذي يأكل ولا يشبع، اليد العليا خيرٌ من اليد السفلى»، قال حكيم: قلتُ: يا رسول الله، والذي بعثك بالحقِّ لا أرزأ أحداً بعدك شيئًا حتى أفارق الدنيا».

أن ينهاهن، فذهب الرجل، ثم أتى فقال: قد نهيتهنَّ، وذكر أنهن لم يطعنه، فأمره الثانية أن ينهاهن، فذهب الرجل، ثم أتى فقال: قد نهيتهن، وذكر أنهن لم يطعنه، فذهب ثم أتى فقال: والله لقد غلبنني - أو غلبنا - فزعمت أن النبي ﷺ قال: «فاحث في أفواههن التراب»، فقلت: أرغم الله أنفك فوالله ما أنت بفاعل، وما تركت رسول الله ﷺ من العناء»[1].

ومن درر الإمام سفيان الثوري-رحمه الله- قوله: «الإلحاحُ لا يصلحُ، ولا يَجْملُ إلا على الله - عزَّ وجلَّ-»[2].

(١) رواه البخاري (١٣٠٥).
(٢) الآداب الشرعية (٢/٢٨٦).

الجِدُّ

١ ـ المسلم بناء أمره على الجد:

الجد وحسن السمت صنوان لا يفترقان، والمسلم بناء أمره على الجد، فيولي وجهه شطر معالي الأمور وينأى بنفسه عن سفاسفها، وهزلها، وليس معنى أن يكون الرجل شديداً حديداً ولكنه الاعتدال وعدم الخلط بالجد هزلاً ولا بالهزل جِداً.

كالمزاح ينبغي الإقلال منه وعدم الإسفاف والتمادي فيه.

٢ ـ صور من مزاح النبي ﷺ:

وقد كان النبي ﷺ يمزح ومزاحه ﷺ جزءٌ من تربيته لأصحابه والتحبب إليهم؛ فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قالوا: يا رسول الله إنك تداعبنا قال: «إني لا أقول إلا حقًا»[1].

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (٨٣٦٦)، والترمذي (١٩٩٠)، وصححه الألباني في «الصحيحة» (١٧٢٦).

قال المباركفوري ـ رحمه الله ـ في شرحه لهذا الحديث: «والأظهر أن منشأ سؤالهم أنه ﷺ نهاهم عن المزاح كما سيجيء في باب المراء عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «إني لا أقول إلا حقًا»؛ أي: عدلاً وصدقًا لعصمتي عن الزلل في القول والفعل، ولا كل أحد منكم قادرًا على هذا الحصر؛ لعدم العصمة فيكم»[1].

وقد كان النبي ﷺ يمزح ـ أحيانًا ـ ومن مزاحه ما جاء عن أنس رضي الله عنه قال: إن كان النبي ﷺ ليخالطنا حتى يقول لأخ لي صغير: «يا أبا عمير ما فعل النغير»[2].

وفي رواية عن أنس أن النبي ﷺ كان يدخل على أم سليم ولها ابن من أبي طلحة يكنى: أبا عُمير، وكان يمازحه فدخل فرآه حزينًا فقال: «ما لي أرى أبا عُمير حزينًا؟»،

---

(١) «تحفة الأحوذي» (٥/ ٤٠٠).

(٢) رواه البخاري (٦١٢٩).

فقالوا: مات نغره الذي كان يلعب به، فقال: فجعل يقول: «أبا عُمير ما فعل النغير؟»[١].

فانظر أخي إلى مزاحه ﷺ فتجد البهاءَ والجلالَ فتزداد له حبًا وتوقيرًا، فالحقُّ حليته، والصدق ـ الذي هو عنوان الجد ـ دثاره، والتحبب شعاره.

ومزاحه ﷺ كثير الفوائد عظيم العوائد؛ فقد ذكر القاضي عياض ـ رحمه الله ـ ستين فائدة من فوائد هذا الحديث (أي حديث أبي عمير لخصها ابن حجر في الفتح)[٢].

٣ ـ أقسام المزاح:

وينقسم المزاح إلى قسمين:

١ ـ محمود: وضابطه كما قال ابن حبان: «هو الذي لا تشوبه ما كره الله ـ عزَّ وجلَّ ـ ولا يكون بإثم، ولا قطيعة رحم»[٣].

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد (١٨٤٨٩)، وصححه الألباني في «صحيح الجامع» (٧١٢٨).

(٢) «فتح الباري» (١٢/ ٢٢٧).

(٣) «روضة العقلاء» (ص٧٧).

٢ ـ مذموم: وضابطه كما قال ابن حبان ـ أيضًا ـ: «الذي يثير العداوة ويُذهب البهاءَ، ويقطعُ الصَّداقة، ويُجَرِّئُ الدَّنيءَ عليه، ويُحْقد الشريفَ به»[١].

ومن فوائد المزاح المحمود كما قال بعضهم: «يُسَلِّي الهمَّ، ويرقَعُ الخُلَّة[٢]، ويحيي النفوسَ، ويميل قلوبَ الناس إليه»[٣].

وكتب بعضهم إلى صاحبٍ له: «ولنا بعد مذهب في الدعابة جميلٌ لا يشوبه أذىً ولا قَذَىً، يخرج إلى الأُنس من العُبُوسِ، وإلى الاسترسال من القطوب، ويُلحقنا بأحرار الناس وأشرافهم، الذين ارتفعوا عن لبسة الرِّياء والتَّصنُّع»[٤].

---

(١) المرجع السابق (ص٧٧).

(٢) الخُلَّة: ـ بضم الخاء ـ الصداقة، أي يرقَعُ ويُصْلح من الصداقة والمودة ما مزقته الملالة والسَّأم.

(٣) «مسافر في قطار الدعوة» (ص٢٤٧).

(٤) «عيون الأخبار» (١/ ٣٧٤).

ومن مخاطر المزاح المذموم: إفسادُ المودَّة، وإيغار الصُّدُور، وإثارةُ العداوة، وذهابُ البهاء، وتجرِئة الدَّنيء، وحقد الشريف، وإحياءُ الضَّغينة»[1].

وهذا ما حَدَ مِسْعَرَ بن كُدامٍ إلى أن ينصحَ ابنه كُدامًا قائلاً:

إنِّي نحلْتُكَ[2] - يا كُدَامُ - نَصِيْحَتي
فاسْمَعْ مقالَ أَبٍ عليك شَفِيقِ
أمَّا المُزَاحَةُ والمراءُ فَدَعْهُمَا
خُلُقَانِ لا أرْضَاهُمَا لِصَدِيقِ
إنِّي بَلَوتُهُما[3] فَلَمْ أَحْمَدْهُمَا
لمجاورٍ جاراً ولا لشَقِيقِ[4]

وفي بعض منثور الحكم: «المزاح يأكل الهيبة كما تأكل النار الحطب»[5].

---

(١) «روضة العقلاء» (ص٧٧-٨٠).
(٢) نحلتُك: من النِّحلَة، وهي العطيَّة الخالصة على وُدٍ وتكريمٍ.
(٣) بَلَوتُهَا: اختبرتها وجربتها.
(٤) «روضة العقلاء» (ص٧٨-٨٩).
(٥) «أدب الدنيا والدين» (ص٣١٠).

وقال بعض الحكماء: «من كثر مزاحه زالت هيبته»[١].

وقال ابن عبد البر ـ رحمه الله ـ: «وقد كره جماعة من العلماء الخوض في المزاح؛ لما فيه من ذميم العاقبة، ومن التوصل إلى الأغراض، واستجلاب الضغائن، وإفساد الإخاء»[٢].

وكان يقال: لكل شيء بداء، وبداء العداوة المزاح، وكان يقال: لو كان المزاح فحلاً ما ألقح إلا الشر»[٣].

وقال أبو هفان:

مازح صديقك ما أحبَّ مزاحًا
وتوقَّ منه في المزاح جماحا

فلربما مزح الصديق بمزحةٍ
كانت لبَابِ عداوة مفتاحا[٤]

---

(١) المرجع السابق (ص٣١٠).
(٢)،(٣) «بهجة المجالس» (ص٥٦٩).
(٤) المرجع السابق (٢/ ٥٧٠).

وصفوة القول أن المزاح لا ينبغي الإكثار منه، ولا الإسفاف، فيه أما ما عدا ذلك فيحسن؛ لما فيه من إيناس الجليس، وإزالة الوحشة، ونفي الملل والسآمة، وإنما المزاح في الكلام كالملح في الطعام، إن عدم أو زاد على الحد فهو مذموم»[١].

أفِدْ طَبْعَكَ المَكْدُودَ[٢] بالجِدِّ راحَةً
يجم، وَعَلِّلْهُ بشيءٍ مِنَ المَزْحِ
ولكنْ إذا أعْطَيْتَهُ المَزْحَ، فَلْيَكُنْ
بِمِقْدارِ ما تُعْطي الطَّعَامَ مِنَ الملحِ[٣]

٤ ـ لا تمازح هؤلاء:

يحسن مراعاة أحوال الناس وتوخِّي طباعهم؛ فإن من الناس من يجرُّه المزاح إلى الأذى ولا بأس من ذكر من لا يحسن المزاح معهم:

---

(١) «بهجة قلوب الأبرار» لابن سعدي (ص٧٠).
(٢) المكدود: المتعب المُرهَق من شدَّة العمل.
(٣) «أدب الدنيا والدين» (ص٣١١).

(أ) الغـربـاء:

لا تمازح غريبًا لا يعرفك فـينزلك غير منزلتك، قال أبو عـبـد الرحـمن الأعـرج: «كان إبـراهيم بن أدهـم يحـدثنا ويضاحكنا، وإذا رأى غريبًا قال هذا جاسوس»[١].

وقال سـعيـد بن العاص: «لا تمازح الشريف فـيحـقد عليك، ولا الدنيء فيجترئ عليك»[٢].

(ب) الصـبيان:

كذلك الصبـيان يحسن التحفظ من المزاح مـعهم، فربما كان فيهم واقحًا يظن أنك لم تمازحه إلا لهوانك عليه، ولكن من عرفت طـبعه وحـسن أدبه فلا تبـخل عليه بمزحـة تجعله يحبك ويأنس إليك؛ فعن محـمد بن المنكدر قال: قالت لي أمي وأنا غُلامٌ: «لا تمازح الغلمان فتهون عليهم»[٣].

(١) «روضة العقلاء» (ص١٣١).
(٢) «بهجة المجالس» (٢/٥٦٩).
(٣) «روضة العقلاء» (ص٨٠).

obeikandl.com

(جـ) العامة:

لا ينبغي لطالب العلم ومن يُقْتَدَىٰ به المزاحُ بحضور العوام؛ «وإذا رأى العوام أحد العلماء مترخصًا في أمرٍ مباحٍ كالمزاح هان عندهم، فالواجب عليه صيانة علمه وإقامة قدر العلم عندهم، فقد قال بعض السلف: كنَّا نمزح ونضحك، فإذا صرنا يقتدى بنا فما أراه يسعنا ذلك».

وقال سفيان الثوري: تعلموا هذا العلم وأكظموا عليه ولا تخلطوه بهزل فتمجه القلوب، فمراعاة الناس لا ينبغي أن تنكر، وقد قال ﷺ لعائشة: «لَوْلَا حَدَثَانِ قَوْمِكِ بِالكُفْرِ لَنَقَضْتُ الكَعْبَةَ وجَعَلْتُ لها بَابَيْنِ»[1]، وقال أحمد ابن حنبل في الركعتين قبل المغرب: رأيت الناس يكرهونها فتركتها، ولا تسمع من جاهل يرى مثل هذه الأشياء رياء إنما هذا صيانة للعلم.

---

(١) رواه البخاري (١٥٨٣)، ومسلم (١٣٣٣).

وبيان هذا أنه لو خرج العالم إلى الناس مكشوف الرأس أو في يده كسرة يأكلها قلَّ عندهم وإن كان مباحًا، فيصير بمثابة تخليط الطبيب الآمر بالحمية، فلا ينبغي للعالم أن ينبسط عند العوام حفظًا لهم، ومتى أراد مباحًا فيستتر به عنهم[1].

وقال ابن المقفع: «الْبَسْ للناسِ لباسَيْنِ لَيْسَ للعاقل بُدٌّ منهما، ولا عيشَ ولا مُرُوءةَ إلا بهما: لباسَ انقباضٍ واحتجازٍ منَ الناس، تَلْبَسُهُ للعامَّة فلا يلقَوْنَكَ إلا مُتَحَفِّظًا مُتشددًا مُتَحَرِّزًا مُسْتَعِدًا، ولبَاسَ انبساطٍ واسْتِئْناس، تلبَسُهُ للخاصَّة الثِّقات مِنْ أصدقائكَ فَتَلْقاهُم بذاتِ صَدْرِكَ وتُفْضِي إليهم بمَصُون حديثِكَ وتَضَعُ عَنْكَ مَؤونَةَ الحَذَرِ والتَّحفُّظِ فيما بينَكَ وبينَهُمْ، وأهْلُ هذهِ الطبَقَةِ، الذينَ هُمْ أهْلُهَا، قليلٌ من قليلٍ حقًا؛ لأن ذا الرأي لا يُدْخِلُ مِنْ

(١) «صيد الخاطر» (ص١٨٣).

نَفْسِه هذا الدَّخَلَ إلا بَعْدَ الاختبار والتَّكَشُّف[١]، والثِّقة بِصدقِ النَّصيحة ووفاء العَهْدِ»[٢].

وقال ابن حبَّان: «مَنْ مازح رجلاً من غير جنسه، هان عليه، واجترأ عليه، وإن كان المزاح حقًا؛ لأن كل شيء لا يجب أن يسلُك به غير مَسْلِكه، ولا يظهر إلا عند أهله، على أنِّي أكره استعمال المزاح بحضرة العامة، كما أكره تركه عند حضور الأشكال»[٣].

(د) الأعداء:

لا يحسن ولا يجمل المزاح مع الأعداء لما يقود إلى مفسدة تؤذيك، وربما قدحت زند الإحن في صدورهم فلاقيت منهم بعض ما تكره.

---

(١) **التكشف:** إظهار ما في النفس.

(٢) «الأدب الصغير والأدب الكبير» لابن المقفع (ص١٠٥-١٠٦).

(٣) «روضة العقلاء» (ص٨١).

قال الماوردي ـ رحمه الله ـ: «وليحذر أن يسترسل في ممازحة عدو فيجعل له طريقًا إلى إعلان المساوئ، وهو مجدٌّ، ويفسح له في التشفي مزحًا وهو مُحِقٌّ، وقد قال بعض الحكماء: إذا مازحت عدوك ظهرت له عيوبك»[1].

٥ ـ إذا لسعتك مزحة فتوقر:

من اللَّباقة أن تُحْسن التَّصرُّف مع من يُخْطئ معك في مزحه حسب ما يناسب المقام من ردٍّ مُفحمٍ، أو تحديق النظر فيه، أو غير ذلك، واحترس من سَوْرَة[2] الغضب واعلم أن الكرام هم أصبر نفوسًا، وأشرف همةً، وإعراضك عن الجاهل محض في التكرم وأبرأ من الدَّنَسِ وأنْزَهُ.

(١) «أدب الدنيا والدين» (ص٣١٣).
(٢) سورة كل شيء شدته وحدَّته.

ترك الفضول

من حسن السمت ترك بعض الفضول؛ فمن ذلك فضول الكلام، وفضول النظر، وفضول المخالطة، وفيما يأتي الحديث عن فضول الكلام ثم ذكر الباقي:

أولاً ـ فضول الكلام:

وفضول الكلام لا خير فيه البتة، منه ما هو مضرة محضة، فمتى علم المرء أن كل كلمة تكتب له أو عليه، أمسك عن كثير من كلامه وما يعقلها إلا العالمون، ومتى تم عقل المرء قل كلامه، ومن أمثال العرب: «بترك الفضول تكمل العقول».

وما أكثر الأدلة في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ التي تحث على ترك الفضول والإمساك عن كثير من الكلام فمنها:

ـ قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ (ق:١٨)، ومعنى ﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ ،

أي خير وشر، ﴿إِلاَّ لَدَيْهِ﴾ مراقب له يسجل كل كلمة يتلفظ بها.

وقال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿لا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِّن نَّجْوَاهُمْ إِلاَّ مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾ (النساء: ١١٤).

قال الشيخ ابن سعدي ـ رحمه الله ـ: «أي لا خير في كثير مما يتناجى به الناس ويتخاطبون وإذا لم يكن فيه خير، فإما ما لا فائدة فيه كفضول الكلام المباح، وإما شر ومضرة محضة كالكلام المحرم بجميع أنواعه»[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت»[(٢)].

قال ابن حجر ـ رحمه الله ـ: «وهذا من جوامع الكلم؛ لأن القول كله إما خير وإما شر، وإما آيل إلى

---

(١) «تفسير ابن سعدي» (ص١٦٥).

(٢) رواه البخاري (٦٠١٨)، ومسلم (٤٧).

أحدهما، فدخل في الخير كل مطلوب من الأقوال فرضها وندبها فأذن فيه على اختلاف أنواعه، ودخل فيه ما يؤول إليه، وما عدا ذلك مما هو شر أو يؤول إلى الشر فأمر عند إرادة الخوض لزوم الصمت»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من حسن إسلام المرء تركُهُ ما لا يعنيه»[٢].

ومعنى الحديث أن من حسن إسلام المرء تركه ما لا يهمه أمره، فإن الإقبال على ذلك بالقول أو الفعل فضول لا منفعة منه أصلاً.

وقلَّ أن يندم رجل على ترك الفضول، لكن المتكلم فيما لا يعنيه هو الذي قد ندم مرارًا، وقلَّ أن تجد رجلاً اجتمع له مع الهذر حسن السمت بل إن ذلك لا يكاد يوجد.

---

(١) «فتح الباري» (١٢/ ٦٠).

(٢) حسن: أخرجه الترمذي (٢٣١٧)، وابن ماجه (٣٩٧٦).

وإن الناظر إلى إمساك السلف عن فضول الكلام ليرَى عجبًا؛ فهذا الحسن البصري ـ رحمه الله ـ يقول: «لقد أدركت أقوامًا إن كان الرجل منهم ليجلس مع القوم فيروه عِيِيًّا ـ أي من طول صمته ـ وما به عِي، إنه لفقيه مسلم»[١].

وقال عطاء: «كانوا ـ أي السلف ـ يكرهون فضول الكلام، وكانوا يعدون فضول الكلام ما عدا كتاب الله أن تقرأه أو أمرًا بالمعروف أو نهيًا عن منكر، أو أن تنطق في معيشتك بما لابد لك منه»[٢].

إن كان يعجبك السكوت فإنه
قد كان يعجب قبلك الأخيارا
ولئن ندمت على سكوت مرة
فلقد ندمت على الكلام مرارا[٣]

---

(١) «صحيح الزهد» للإمام وكيع بن الجراح (ص٥٥).
(٢) «الآداب الشرعية» لابن مفلح (١/ ٦٦).
(٣) «روضة العقلاء» (ص٤٣).

ثانيًا ـ فضول النظر:

ليس من حسن السمت تقليب النظر في كل غاد ورائح، وغير ذلك كالقصور والدُور وكل مركوب، وغير ذلك من المتاع.

وقد نهى الله ـ سبحانه وتعالى ـ عن تقليب النظر إلى متاع الدنيا الزائلة وزهرتها الفانية؛ لأن ذلك مظنة التعلق بها، قال الله ـ سبحانه وتعالى ـ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (طه: ١٣١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «النظر إلى الأشجار والخيل والبهائم إذا كان على وجه استحسان الدنيا والرياسة والمال فهو مذموم؛ لقول الله ـ تعالى ـ: ﴿وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (طه: ١٣١).

وأما إذا كان على وجه لا ينقص الدين وإنما فيه راحة للنفس فقط؛ كالنظر إلى الأزهار فهذا من الباطل الذي يُستعان به على الحق»[١].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«انظروا إلى من أسفل منكم، ولا تنظروا إلى من هو فوقكم، فهو أجدر[٢] أن لا تزدروا[٣] نعمة الله عليكم»[٤].

قال النووي ـ رحمه الله ـ: «قال ابن جرير وغيره: هذا حديث جامع لأنواع من الخير؛ لأن الإنسان إذا رأى من فُضِّلَ عليه في الدنيا، طلبت نفسه مثل ذلك واستصغر ما عنده من نعمة الله ـ تعالى ـ وحرص على الازدياد ليلحق بذلك أو يقاربه، هذا هو الموجود في غالب الناس.

---

(١) «مختصر الفتاوى المصرية» لشيخ الإسلام ابن تيمية (ص٣٥).

(٢) أجدر: أحق.

(٣) تزدروا: تحتقروا.

(٤) رواه البخاري (٦٤٩٠)، ومسلم (٢٩٦٣) واللفظ له.

وأمَّا إذا نظر في أمور الدنيا إلى من هو دونه ظهرت له نعمة الله عليه فشكرها وتواضع وفعل فيه الخير»[١].

وكان السلف يكرهون فضول النظر فكان حسن السمت ملازمًا لهم لزوم الظل لصاحبه.

قال أبو الدرداء ﷺ: «يا بني لا تتبع بصرك كل ما ترى في الناس؛ فإنه من يتبع بصره كل ما يرى من الناس يظل حزنه ولا يشف غيظه، ومن لا يعرف نعمة الله إلا في مطعمه أو مشربه فقد قلَّ علمه وحضر عذابه، ومن لم يكن غنيًا من الدنيا فلا دنيا له»[٢].

وقال ﷺ: «إياكم والسوق؛ فإنها تُلغي وتُلهي»[٣].

وقال رجل لداود الطائي ـ رحمه الله ـ: «لو أمرت بما في سقف البيت من العنكبوت فَنُظِّف، فقال له: أما علمت

---

(١) «شرح النووي على مسلم» عند شرحه لحديث (٢٩٦٣).
(٢) «الزهد» للإمام أحمد (ص١٩٦).
(٣) المرجع السابق (ص١٦٨).

أنهم كانوا يكرهون فضول النظر، ثم قال: نبئتُ أن مجاهداً كان العنكبوت في بيته ثلاثين سنة لم يشعر به»[١].

وقدم الأحنف بن قيس من سفرٍ وقد غيَّروا سقف بيته أو قد حمَّروا السقائف وخضروها فقالوا له: ما ترى إلى سقف بيتك؟ قال: معذرة إليكم إني لم أره، لا أدخل حتَّى تغيروه»[٢].

فهذا بعض ما جاء في فضول النظر.

ومن النظر ما يكون مكروهًا كالنظر إلى زهرة الدنيا على وجه الاستحسان، ومنها ما يكون مستحبًا كالنظر لأثر من قبلنا للعظة والاعتبار، والنظر إلى الأزهار والطبيعة على وجه التفكر والتأمل في خلق الله ـ سبحانه وتعالى ـ.

ومنه ما هو محرم كالنظر إلى النساء الأجنبيات والأمرد والحسن والنظر إلى العورة ومحل الشَّهْوَةِ.

---

(١) المرجع السابق (ص٢٥٥).
(٢) المرجع السابق (ص٣٣٨).

وهذا الأخير الحديث عنه ذو شجون[١]، وأمره معلوم لكل ذي لب.

وبقي كثرة الالتفات سواء بالعين أو بالوجه، فهو مناف للسمت الحسن بل أمارة على خفة العقل وسوء الأدب.

قال علي رضي الله عنه: «لن يعدم من الأحمق خَلَّتَيْن[٢]، كثرةُ الالتفات وسرعة الجواب بغير عرفانٍ»[٣].

ثالثًا ـ فضول المخالطة:

العزلة عن الناس ـ أحيانًا ـ وسيلة إلى حفظ اللسان وحفظ البصر وحفظ السمع عن سماع ما يكدر النعم ويملأ القلب من الحِنات والأحقاد والعدوان وهي ـ أي العزلة ـ مستحبة لحفظ الوقت ومحاسبة النفس.

---

(١) مظان ذلك كتاب «فتنة النظر» لراقمه.

(٢) الخَلَّة: الخصلة والعادة.

(٣) كتاب «الآداب» لابن شمس الخلافة (ص٥٦).

وهي من أعظم وسائل حفظ السمت لأن الرجل ربما خالط من لا يشاكله فلا يأمن على نفسه الضرر.

وربما سمع كلمة عوراء أيقظت الحمية في نفسه، فلا يأمن من أن يرد بمثلها أو أشد، فأي سمت بقي له بعد هذا، والسلامة لا يعدلها شيء[١].

قال عمر ﷺ: «خذوا بحظكم من العزلة»[٢].

وقال أبو الدرداء ﷺ: «نعم صومعة الرجل بيته يكف بصره ولسانه»[٣].

وقال مسروق ـ رحمه الله ـ: «إن المرء لحقيق أن يكون له مجالس يخلو فيها فيذكر فيها ذنوبه فيستغفر منها»[٤].

---

(١) الخلطة إذا كانت لنشر العلم وعيادة المريض وتشييع الجنائز، والإصلاح بين الناس وغير ذلك من وجوه البر فهي غنيمة وليس من العزلة في شيء.
(٢) «مختصر منهاج القاصدين» (ص١١٤).
(٣) «صحيح كتاب الزهد» للإمام أحمد (ص٨٩).
(٤) «الزهد» للإمام أحمد (ص٤٨٥).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية ـ رحمه الله ـ: «وأما اعتزال الناس في فضول المباحات وما لا ينفع ـ وذلك بالزهد فيه ـ فذلك مستحب»[١].

وقال ـ أيضًا ـ: «ولابد من أوقات ينفرد بها بنفسه في دعائه وذكره وصلاته وتفكره ومحاسبة نفسه وإصلاح قلبه»[٢].

وقال ابن القيم ـ رحمه الله ـ: «إن فضول المخالطة هي الداء العضال الجالب لكل شر، وكم سلبت المخالطة والمعاشرة من نعمة، وكم زرعت من عداوة، وكم غرست في القلب من حزازات تزول الجبال الراسيات وهي في القلوب لا تزول، ففضول المخالطة فيه خسارة الدنيا والآخرة، وإنما ينبغي للعبد أن يأخذ من المخالطة بمقدار الحاجة»[٣].

---

(١) «فتاوى ابن تيمية» (١٠/ ٤٠٥).
(٢) المرجع السابق (١٠/ ٤٢٦).
(٣) «بدائع الفوائد» (ص/ ٢٣١).

وقال ـ أيضًا ـ: «الاجتماع بالإخوان قسمان:

أحدهما ـ اجتماع على مؤانسة الطبع وشغل الوقت؛ فهذه مضرته أرجح من منفعته، وأقل ما فيه أن يفسد القلب ويضيع الوقت.

الثاني ـ الاجتماع بهم على التعاون على أسباب النجاة والتواصي بالحق والصبر؛ فهذا من أعظم الغنيمة وأنفعها ولكن فيه ثلاث آفات:

إحداها ـ تزين بعضهم لبعض.

الثانية ـ الكلام والخلطة أكثر من الحاجة.

الثالثة ـ أن يصير ذلك شهوة وعادة ينقطع بها عن المقصود.

بل إن إدمان الخلطة بالناس بلا مسوغ سبب للرياء وطريق إلى الهلاك، قال ابن الجوزي ـ رحمه الله ـ: «لا يكاد يحب الاجتماع بالناس إلا فارغ؛ لأن مشغول القلب بالحق يفر من الخلق، متى تمكن فراغ من معرفة

الحق امتلأ بالخلق، فصار يعمل لهم ومن أجلهم ويهلك بالرياء ولا يعلم»[١][٢].

(١) «صيد الخاطر» (ص٢١٧).

(٢) من أراد المزيد عن معرفة فوائد العزلة فعليه بكتاب «الأمر بالعزلة» للإمام ابن الوزير، فقد أفاض في ذلك ما أفاض وذكر خمسين نصًا غير الفوائد العلمية والمسائل النظرية.

وقال في مقدمة كتابه أبيات لطيفة له فمنها:

خلّت الثواقب في المناقب نُظِّمت ... فوق الطروس فرائداً وعقودا

وبذلك آثار تواتر نقلها ... وتكاثرت وتبددت تبديدا

منها هنا خمسون نصًا سُقتُها ... مما يصحح مسنداً منقودا

غير الشواهد من فنونٍ جمَّةٍ ... منثورة نضدتها تنضيدا

obeikandl.com